قصة قصيرة

الزقاق

مصطفى الكيلاني

شَيَّعَ أمّه إلى القبر في عشية ذلك اليوم. الدّار هي الدّار. بين السقيفة وغرفته مسافة خرافة قصّتها عليه جدّته مَرَّات، وللغول فيها مغامرات مرعبة تنتهي بفرار جمجمة الأمير وزواجه بالفتاة التي أحبّها قبل أن يسافر إلى جزيرة العجائب. ولفظته الغرفة إلى أماكن وسخة تمتزج فيها روائح الأطعمة بالرطوبة ونتونة المراحيض المخلوعة الأبواب. وَأبْصَرَ في ركن بعيد لَطّخَهُ ظلّ شتائيّ بارد أمّه مدبرة وَبِيَدِها قفّة ولم يتبيّن أشياءَها.. أَسْرَعَ إليها.. كَادَ يُمْسك بِكمّ رِدَائِهَا لَوْلا الباب. ذابت في نَفَق، وَتَرَكَتْهُ يقتطع الزمن ويلتذّ بمرارة فرح كاذب، ثمّ اندفعت من نافذة المطبخ رائحة سمك مقليّ تعانِق الغبش وأشباه أفكار وليدة ساعتها.. أَجَالَ النَظَر في جدار هَرِم تنام حذْوه جراء هزيلة وللدّم رائحة الهزيمة، وفي آخر الصفّ قطّة سَوْداء تنهش لحم جُرَذ، وامتزجت رائحة الموت بارتعاشة المكان. سأل عجوزاً تلملم لِحَافَها وتقفل باب منزلها: «كيف تولد الزياتين بعد موتها؟». وظنّ المرأة تنطق بالحبّ لتدفعه إلى حلم أبيض يرى فيه أمّه عارية في حمّام القرية تدلك ظهره والفانوس الشاحب يلفّه البخار، وقطرات الماء في السقيفة ترضع ذاكرته وجعاً كأنه القبور المتهدّمة تقيم أعراسها وتستعيد فرحاً قديماً، ولكنّ أبواب المنازل متشابهة والحقول المنسيّة أيّام خريف غيّبها زمن كان يزور مرابعه - وهو طفل - مع أبناء أعمامه ليعانق التراب الأحمر ويتسلق الأشجار ويلاحق عيداً لا يتحقق وأشباح فراشات... وغطّت العجوز وجهها بيديها بعد أن أشارت إلى عمود الكهرباء وتركته يردّد قولته دون ملل: «الولادة هي موت الولادة، والوجع أوسع من العالم...» وحينما أطلقت مَوْتَها بعيداً عنه لِفراغ الليل ونباح الكلاب السائبة تراءى له وجه أمّه من جديد فرحاً مهيض الجناح تلتفّ به حركات النسوة يحْملن القلال على الظهور، والأطفال الحفاة يتجَمّعون ليثقبوا علب الطماطم الفارغة ويضعوا لُعَباً تطعن الزمن إلى حين ثم تغمرها النفايات وتحملها ناقلات البلديّة إلى الوادي.

الدّار هي الدّار. بَيْنَ غرفته والمطبخ فناء مستطيل كان أبوه تربّع فيه قريباً من الغرفة الشرقيّة يدخّن سجائر «الحلّوزي» ويحدّق في فراغ يومٍ ينقضي.

وشاء السادة أن تهلك الزياتين في هاجرة يوم استَوْرَدُوا فيه سراويل «الدجين» وأقْفَاصاً كهربائيّة وعصافير صُنعت خصّيصاً لترقص ولا تطير ولعب أطفال حربيّة وَأكداس لحم بشريّ تشتهي زرقة السماء ودفء الشمس وفِراش اللّذّة والبحر.. وقبل أنْ تهلك الزياتين بعامَيْنْ امتدّت أغصان الكرمة إلى أن بلغت أعلى الحائط، وانزعجت أمّه حينما اكتشفت أنّ البومة تنام بين الأوراق، والعنب الأسود يتعفّن وهو في عناقيده والسماء تتلبّد سُحُباً لاَ تَهَب التراب ماء. وصادف أن تَيَبَّسَت الكرمة في هاجرة ذلك اليوم، ولَمْ يَبْقَ له بعد ذلك إلاّ أن يُشيّع أمّه إلى القبر، ويبحث له في الزقاق عن ذاكرة تناهشتها أبواب المنازل المتشابهة وَلُفُف النسوة تظهر وتختفي وزغردات الأعراس تموت في لياليها... تلك هي الدّار، حفظ أشياءها، ولكنّ شراً واحداً تفطّن إليه يوماً ونسف معرفته الأولى... بَدَا له الفناء والغرف وأشكال الجدران والنوافذ والأبواب صوراً غائمة، وكان المكان يختفي في غمرة المكان الآخر.. حينما لامست عيناه الباب الكبير بعد غياب عامين تذكّر خطوطاً وألواناً وأبصَر في وجهه

غضوناً . . أدْرَك لأوّل مرّة أن المكان يموت مثلما يموت الإنسان والأمطار تحمل في جموحها عطش التراب والرّيح ترسل بحارها ثم ينهدّ نبضها ويبتلع السكون أوجاعها، وفي كلّ مرة يلملم رحم الظلمة تفاصيل الفاجعة وتهلك الطيور دون أن تخلو أعشاشها من الفراخ. فاجأه الباب. تشقّقت أضلاعه، وتعرّت بعض مساميره، والقفل عَلاه الصَدَأ أو الصرير الّذي كان يشبه مواء متقطّعاً أصبح دويّ رَعْد كاذب، والحيطان تقشّر طلاؤها وعلتها صُفْرة الزمن الآخر والغرف الثلاث المتشابهة بدأت أشياؤها تتآكل وعجّت بها العناكب. . . والفناء القفر ابتلع أسرارَه وغصّ بفراغ أبديّ.

الدّار هي الدّار. كانت أمّه في آخر الزقاق تحمل كَفنها وتهرول ضاحكة. . . سمعها تناديه وتلوّح بذيل ملاءتها. . وتلاحقت أمام ناظريه أبواب المنازل المتشابهة والمراحيض المخلوعة الأبواب والجراء الهزيلة والنساء يحملن القلال والأطفال يصنعون لُعَبهم وأشباح الفراشات والتراب الأحمر القاني وأغصان الزياتين الميّتة وأبوه جالس في الفناء يدخّن السجائر وينتظر الليل. وعندما لامست أصابعه سواد ملاءتها لفظها الزقاق إلى الاتّجاه الآخر. . أغمض عينيه في سعير غضب حزين، فإذا المنازل المتشابهة أقبية تدفع رجالاً يلبسون برانيس رماديّة ويغصّ بهم الزقاق ثم يندفعون تحت أجنحة الغبش يحملون جثّتها ويتمتمون بكلام لا يفهمه إلّا الأتقياء. . وبعد أن تطأ أوّل الأحذية رأس الزقاق ينبلج نور الصباح وتستعيد الأبواب زينتها وتختفي أشلاء الجراء والمراحيض المخلوعة الأبواب وتطّاير أشباح الفراشات حول الشبابيك المفتوحة ثمّ يُزهر في قلوب الأطفال والصبايا شجر الزيتون.

تونس

دار الآداب

تقدم

ادونيس

في

كلام البدايات

دراسات

صدر حديثا